وحدة السورة القرآنية بين القبول والرفض

بقلم: د. محمود توفيق محمد سعد

لا يخفى أن للقرآن الكريم ترتيبين: ترتيب نزول، وترتيب تلاوة. ترتيب النزول كان على وفق أحداث وملابسات مشاهدة محسوسة، ومن هنا كانت ملامح التطابق في هذا الترتيب مكشوفة لكل ذي عين أو أذن، وترتيب التلاوة كان على وفق أمر باق بقاء القرآن، وهو أمر غير محسوس، تلحظه البصائر والقلوب، ونيِّر العقول، وملامح التطابق فيه، إنما تتكشف لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وللذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون.

العلماء مجمعون على أن ترتيب الآيات في السورة القرآنية توقيفي، فقد كان روح القدس **جبريل عليه السلام** ينزل بمنطوق الآية، وبتحديد موطنها بين أخواتها السابقة النزول عليها، فيأمر المصطفى ـ **صلى الله عليه وسلم** ـ بوضع الآية المنزلة، بين آية كذا وآية كذا من سورة كذا، طبقاً لما هو في اللوح المحفوظ، ولما أمر به الحقُّ عزَّ وعلا[1].

متى كان هذا حقيقة علمية لا مراء فيها، كان وحده كافياً للإيقان والإذعان بوجود اعتلاق جوهري بين آيات السورة القرآنية، وما ذلك إلا لأن آثار القدرة الإلهية في عالم المخلوقات التي أسماها الحقُّ عزَّ وعلا آيات **﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾** (سورة فصلت، الآية ٥٣)، قد أثبت البحث التجريبي المعملي أن أفراد هذا العالم في خلقه وتكوينه، قائم على منهج موحد لا يحول ولا يزول، حتى غدا من الحقائق العلمية المشهورة بين الخاصة والعامة[2].

والرسول المصطفى ـ **صلى الله عليه وسلم** ـ قد أبان أن محور التلاقي بين أفراد عالم الخلق، إنما هو الأرواح، فقال: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[3]، والصياغة العالية في هذا الحديث، ذات عطاء بالغ الوفرة والسمو، ولا سيما قوله جنود مجندة.

المهم أن هذا شأن عالم الخلق الذي هو شطر الوجود، فإن نظرنا إلى الشطر الثاني (عالم الأمر) **﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾** (سورة الأعراف، الآية ٥٤)، الذي يمثل القرآن الكريم أعلاه، فإننا واجدون أن الحق قد أطلق على أفراده في السورة آيات، كما أطلقه على أفراد عالم الخلق، واشتراكهما في هذه التسمية، يشير إلى اشتراكهما في أخص السمات، ولا سيما اعتلاق أفراد كل، وقد رأيت أن جانب الخلق، وأعلاه عالم الإنسان، إنما يرتكز في اعتلاق أفراده على الروح بشهادة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

أليس من كان فعله (الخلق) متسقاً على نهج في تركب عناصره، واعتلاق أفراده يكون قوله (القرآن الكريم) متسقاً على ذلك النهج؟.

إن اتساق عناصر الفعل الإلهي أمر موحد خفي دقيق، لدليل مكين على اتساق عناصر القول الإلهي المتمثل في القرآن الكريم وفق أمر موحد خفي دقيق[4].

وإذا كانت كل أذن واعية تشعر، بل توقن بالانسجام الصوتي بين عناصر الجانب الحسي من القرآن الكريم، الذي سماه الدكتور دراز بالقشرة السطحية[5]. ونحن في حرج من هذه التسمية، وعلى أي حال فإذا كان هذا في الجانب الحسي في القرآن الكريم، فإنه لا يعقل أن يخلو المضمون، والمحتوى، والجانب المعنوي والروحي للقرآن الكريم من الانسجام والاتساق، بحيث يشعر به كل قلب أجرد فيه سراج يزهر، بل يوقن بذلك ويذعن.

وهل دعوة الرسول ـ **صلى الله عليه وسلم** ـ إلى الحرص على إبراز الانسجام الصوتي للقرآن الكريم بقوله: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[6] وبقوله: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن ويجهر به)[7]، وبقوله: (زينوا القرآن بأصواتكم)[8].

هل دعوته تلك، إلا دليل قاطع على أن ثَمّ انسجاماً معنوياً روحياً احتوى عليه القرآن الكريم فحثنا بأقواله تلك، على أن نجم للقرآن بين الانسجامين؟.

وهل تقسيم القرآن الكريم إلى أقسام وهو أمر توقيفي، وكذلك تسمية كل قسم باسم سورة ـ وهي أيضاً تسمية توقيفية، وكذا تسمية كل سورة باسم، وهي أيضاً تسمية توقيفية ـ على ما عليه الفاقهون[9]، هل ذلك كله إلا دليل على أن كل قسم، قائم على أساس الاعتلاق الوثيق بين أفراده وعناصره (الآيات).

ولعل في استجلاء العلماء الفاقهين لأسرار تقسيم القرآن الكريم إلى سور بلغت عدتها إلى أربع عشرة ومائة سورة، برهاناً لنا على وحدة السورة القرآنية، وخير ما قيل في سرائر تقسيم القرآن الكريم إلى سور، قول **الإمام جار الله الزمخشري**: «إن التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها البعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم»[10].

قوله هذا، يشير إلى أن كل سورة قد حوت مجموعة من المعاني المتلاحظة، وجميل من الزمخشري التعبير بتلاحظ المعاني وتجاوب النظم،

فإنه يعطي أن السورة رامية إلى غاية واحدة ، تتلاحظ المعاني في مسيرتها إليها ، وتتناسب وتتناغم العناصر دقيقها وجليلها ، فترى نظماً متجاوباً .

أما دلالة تسمية كل قسم باسم (سورة) على الاتساق بين العناصر في كل سورة ، فإن الجذر الاشتقاقي لهذه التسمية إما أن يكون من (سور المدينة ، أو المرتبة ، أو التسور والتصاعد ، أو السور)[11] ، وهو في كل يعطي دلالة على التناسب والاتساق والاعتلاق . وإن كان خيرها عندي أن تكون التسمية مأخوذة من (التسور والتصاعد) ، لأن ذلك يشير إلى أن الترتيب في التلاوة ، قائم على التصاعد . . أعني تصاعد المعنى ، فينمو إلى غاية وهدف ، إذ يبدأ المعنى بدرجة فإذا ما تابعت القراءة ، وأمعنت النظر ، وصفيت القلب والروح ، تصاعد المعنى عندك ونما وتكاثر[12] . وهذا التصاعد لا يقتصر على تصاعد المعنى فقط ، وإنما يمنح المتلقي تصاعداً إلى آفاق أرحب في القدسية والشفوف كلما تدرج في القراءة ، وهذا الترقي الروحي في الدنيا ، سيكون له نظير من الترقي الحسي يوم القيامة في درجات الجنة ، يوم يقال لقارئ القرآن الكريم ، بعد دخوله الجنة ، اقرأ ورتِّل وارقَ كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت ترتلها[13] .

ولعل ذلك ينير لنا سر من سرائر دعوة الرسول ـ **صلى الله عليه وسلم** ـ إلى إنفاذ السورة كلها عند القراءة[14] ، ومن ثم استحب الفاقهون قراءة سورة كاملة في كل ركعة ، وإن كانت من قصار السور[15] .

كل هذه دلائل وبراهين ، تؤكد أن السورة القرآنية في بنائها اللغوي وتكوينها التعبيري ، قائمة على الاتساق الكامل ، والاعتلاق الوثيق بين جميع عناصرها دقيقها وجليلها ، حسيها ومعنويها ، وأن الوحدة بكل صورها وأنواعها ، كائنة فيها على وجه معجز .

ولعل هذا هو الأساس المكين الذي انطلق منه الفاقهون المؤكدون لحقيقة التناسب والاعتلاق بين عناصر السورة القرآنية ، ممثلاً ذلك في موقف الحافظ أبي بكر عبد الله بن زياد النيسابوري (ت ٣٢٤ هـ) ، حين كان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة ، وكان أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية : لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه ؟ ، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جانب هذه السورة[16] .

وكذلك الإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، أكد على (أن القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[17] ، وقارئ تفسيره (مفاتيح الغيب) ، تتوالى عليه الوقفات الإبداعية للرازي ، الكاشفة عن الاعتلاق الوثيق بين عناصر السورة القرآنية ، وإن يكن غير ملتزم بذلك في جميع آيات السورة ، وكذلك الإمام الفقيه أبو بكر بن العربي قال في كتابه (سراج المريدين) : « ارتباط آي القرآن بعضها ببعض ، حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني ، منتظمة المباني علم عظيم . . . »[18] ومن بعد الرازي وابن العربي ، يقرر الإمام الفقيه الأصولي أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) ، أن (اعتبار جهة النظم مثلاً في السورة ، لا تتم به الفائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود ، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما ، لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها ، فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ، ومنها ما هو المقصود في الإنزال ، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب ، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك)[19] ، ثم يطبق ذلك على عدة سور ، ولا سيما سورة المؤمنون ويقول بعدها : (ومن أراد الاعتبار في سائر سور القرآن فالباب مفتوح ، التوفيق بيد الله ، فسورة المؤمنون قصة واحدة في شيء واحد)[20] .

ويأتي من بعدهم فارس الحلبة ، وحائز قصب السبق الإمام برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) ، فيقدم تفسيراً للقرآن الكريم يقيمه على أساس حقيقة التناسب الكلي للقرآن الكريم وأسماه (نظم الدرر من تناسب الآيات والسور) ، التزم فيه التزاماً كاملاً بتبيان المحور الرئيسي الذي تدور حوله عناصر السورة ، ثم متابعة اعتلاق هذه العناصر في السورة كلها وفقاً لهذا المحور الرئيسي ، الذي سماه البقاعي بالمقصود الأعظم للسورة ، وأكدت الدراسة التفصيلية لتفسيره هذا ، التي أعددناها وأجازتها جامعة الأزهر ، أن الرجل كان دقيقاً ملتزماً نهجه في القرآن الكريم كله ، ففاق سواه في هذا وغيره .

وجاء من بعد البقاعي آخرون كالإمام محمد عبده ، ورشيد رضا ، والشيخ محمود شلتوت ، وابن شهيد ميسلون في كتابه (نظرة العجلان في أغراض القرآن) ، غير أن أفضل العصريين جميعاً العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، فقد كان كتابه (النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن) خير ما كتب في وحدة السورة القرآنية . يقول العلامة الشيخ : (إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً ، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً ، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول ، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول : فلا تزال تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد . . .

ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان ؟ لا . بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمان عند المفصل ، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله ، يسري في الجملة السورة اتجاه معين ، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما

وحدة السورة القرآنية بين القبول والرفض

يأخذ الجسم قواماً واحداً ، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية)[٢١] .

ثم طبَّق أفكاره التي بثها في سفره القيِّم على سورة البقرة تطبيقاً ، كشف به عن الاعتلاق الوثيق بين عناصر السورة ، على الرغم من أنها أطول سورة في القرآن الكريم .

تلك كوكبة من الفاقهين المؤيدين المؤكدين على حقيقة وحدة السورة القرآنية ، وليسوا هم وحدهم في الحلبة ، فقد تركنا الإشارة إلى موقف كثير من الفاقهين ، كابن القيِّم ، الذي يُعدُّ من الأئمة في هذا[٢٢] وأبي جعفر بن الزبير في تفسيره المخطوط (ملاك التأويل) ، والإمام أبي حيان في (البحر المحيط) ، فقد كان حريصاً على تبيان تناسب الآيات في السورة القرآنية ، وكذا الإمام الألوسي في (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) . . . إلخ

على الرغم من هذه الكوكبة المؤكدة لحقيقة وحدة السورة ، تقف شرذمة تنكر قيام السورة القرآنية على نهج الوحدة الكلية ، وأعلى هذه الشرذمة صوتاً ومقاماً سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) ، فقد قرر (أن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك ، لا يتأتى ربط بعضه ببعض ، إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض ، مع اختلاف العلل والأسباب ، كتصرف الملوك والحكام والمفتين ، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة ، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض التصرفات مع بعض مع اختلاف أوقاتها)[٢٣] .

ذلك ما تترس به سلطان العلماء ، وقد تترس بغير حصين ، فأصغر العقول في دنيا الناس ، يرفض قطعاً قياس أفعال وأقوال الحق على أفعال وأقوال الخلق ، عجيب من سلطان العلماء أن يقول ما قال ، وهو العلم الفقيه الموقن أن الله ليس كمثله شيء ، ولا كفعله شيء ، ولا كقوله شيء ؟ . وكيف يستقيم في منطق الشيخ مقايسة بين الحق والخلق في أي أمر ، فضلاً عن أمر يتعلق بالقرآن الكريم وإعجازه ، لقد كبا بالشيخ هنا جواده . وحقاً ما قاله العلامة ولي الدين محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي : (قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيلاً وتأصيلاً ، فالمصحف الشريف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها ، وآياته بالتوقيف ، كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، الذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها . . ففي ذلك علم جم)[٢٤] ، بما مضى ثبت لنا أن الجمهرة الفاقهة ذاهبة إلى أن تناسب عناصر السورة القرآنية حقيقة لا ريب فيها ، وأن دفعها ناجم عن قصور وتسرع في الحكم ، ومن شأن البحث في مثل هذه القضايا الحيطة والحذر ، واستيعاب مناحي القول ، فإنه (من أدق البحوث القرآنية)[٢٥] ، ولعل الله عزَّ وعلاَ يوفقنا فنتابع القول في هذا .

الهوامش

(١) راجع (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، جـ ١ ، ص ٢٥٦ ، و (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي ، جـ ١ ، ص ٦١ .

(٢) راجع كتاب (الله في الأرض) للدكتور أحمد زكي ، رئيس تحرير مجلة « العربي » الكويتية الأسبق .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه ، وفي الأدب المفرد .

(٤) نحن إذ نقول باعتلاق عناصر القرآن على غرار تناسق عناصر عالم الخلق ، فإننا لسنا من المشيرين بهذا ، إلى أن القرآن مخلوق ، وإنما نقول ما قلنا ، وفي قلوبنا وعقولنا محفور : لن يزول إن شاء الله تعالى ، أن القرآن من عالم الأمر لا من عالم الخلق ، ولما كان مالك عالم الخلق ، وعالم الأمر هو الواحد الأحد ، كان حتماً أن يكون على ضرب من التلاقي في بعض الوجوه على الأقل ، لأن الخلق فعل الله والقرآن الكريم قوله .

(٥) راجع (النبأ العظيم) ص ص ١٠١ ــ ١٠٦ ، (الطبعة الرابعة ، سنة ١٣٩٧ هـ) ، دار القلم بالكويت .

(٦) رواه البخاري في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده .

(٧) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

(٨) راجع (مشكاة المصابيح) للتبريزي ، جـ ١ ، ص ٦٧٨ ، تحقيق الألباني ، وراجع (هامش مسند أحمد) ، جـ ٣ ص ٤٤٤ ، (دار المعارف) .

(٩) راجع (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي) للخفاجي ، جـ ١ ، ص ١٧ .

(١٠) (تفسير الكشاف) للزمخشري ، ومعه حاشية السيد الشريف عليه ، جـ ١ ، ص ٢٤١ ، (ط ١٣٩٢ هـ ، الحلبي) .

(١١) راجع مادة (سور) في الصحاح للجوهري ، جـ ٢ ، ص ٦٩٠ ، لسان العرب ، ص ٥٢ ، القاموس المحيط ، جـ ٢ ص ٥٥ .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) ينظر في مثل هذا الشعر كتاب (الشعر والتأمل) ، الفصل السادس ، للناقد هاملتون ، ترجمة مصطفى بدوي .

(١٤) راجع (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، جـ ١ ، ص ٤٦٩ ، و (مصاعد النظر) للبقاعي ، ق / ٥١ ــ ٥٢ ، (مخطوط) .

(١٥) تفسير الكشاف للزمخشري ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(١٦) راجع (البرهان في علوم القرآن) للزركشي ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(١٧) تفسير الرازي ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤ .

(١٨) البرهان للزركشي ، جـ ١ ، ص ٣٦ ، و (الإتقان) للسيوطي ٢ / ١٠٨ ، و (نظم الدرر) للبقاعي ، (مخطوط) ٣٠٢٩١ .

(١٩) الموافقات للشاطبي ٣ / ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ، (ط ١٩٦٩ م ، المدني بمصر ، نشر صبيح) .

(٢٠) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨٣ .

(٢١) النبأ العظيم ، ص ١٥٥ .

(٢٢) راجع (منهج ابن القيِّم في التفسير) لمحمد أحمد السنباطي ، ص ٨٤ وما بعدها ، (ط مجمع البحوث الإسلامية) .

(٢٣) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، ص ٢٢١ .

(٢٤) انظر (برهان) للزركشي ، جـ ١ ، ص ٣٧ ، و (الإتقان) للسيوطي ، ٢ / ١٠٨ ، و (نظم الدرر) للبقاعي ، (مخطوط) ١ / ٢ ــ ٣ .

(٢٥) من أسرار التعبير القرآني ، للدكتور محمد أبي موسى ، ص ٢٠٧ .